

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٢ - سُورَةُ الْجُمُعَةِ

مدنية . وآياتها إحدى عشرة .

روى مسلم^(١) في صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين .

(١) أخرجه في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٦٤ (طبعنا) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى:

[١] (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ)

[٢] (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

«يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ» أي: العرب «رَسُولًا مِنْهُمْ» أي من أنفسهم، أمياً مثلهم، «يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ» أي: مع كونه أمياً مثلهم لم تعهد منه قراءة ولا تعلم، «وَيُزَكِّيهِمْ» أي: من خباثت العقائد والأخلاق، «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ» أي: القرآن والسفة «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» أي: جَوْر عن الحق، وانحراف عن سبيل الرشد. وهو بيان لشدة افتقارهم إلى نبي يرشدهم.

قال ابن كثير: فبعثه الله سبحانه وتعالى على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، وقد اشتدت الحاجة إليه. وذلك أن العرب كانوا قديماً متمسكين بدين إبراهيم عليه السلام فبدلوه وغيروه، واستبدلوا بالتوحيد شركاً، وباليقين شكاً، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله. وكذلك أهل الكتاب، قد بدلوا كتبهم وحرفوها وأولوها، فبعث الله محمداً ﷺ بشرع عظيم كامل، شامل لجميع الخلق، فيه هدايتهم، والبيان لجميع ما يحتاجون إليه من أمر معاشهم ومعادهم، والدعوة لهم إلى ما يقربهم إلى الجنة، ورضا الله عنهم، والنهي عما يقربهم إلى النار، وسخط الله تعالى. حاكم فاصل لجميع الشبهات والشكوك والريب، في الأصول والفروع،

وجمع له تعالى - وله الحمد والمنة - جميع المحاسن فيمن كان قبله ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من الأولين ، ولا يعطيه أحداً من الآخرين . فصلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين . انتهى .

وإنما أوترت بعثته صلوات الله عليه في الأميين ، لأنهم أحدث الناس أذهاناً ، وأقواماً جناناً ، وأصفاً فطرة ، وأفصحهم بياناً ، لم تفسد فطرتهم بفواشى المتحضرين ، ولا بأفانين تلاعب أولئك المتمدنين ، ولذا انقلبوا إلى الناس بعد الإسلام بعلم عظيم ، وحكمة باهرة ، وسياسة عادلة ، قادوا بها معظم الأمم ، ودوخوا بها أعظم الممالك . وإيثار البعثة فيهم - بمعنى إظهارها فيهم - لا ينافي عموم الرسالة ، كما قال سبحانه ^(١) (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً) وقوله ^(٢) (لِأَنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) وهو ظاهر . وقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

«وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» معطوف على (الأميين) .
يعنى : أنه بعثه في الأميين الذين على عهده ، وفي آخرين من الأميين لم يلحقوا بهم بعد ، وسيلحقون بهم ، وهم الذين بعد الصحابة رضی الله عنهم ، من كل من دخل في الإسلام إلى يوم القيامة ، كما فسره مجاهد وغيره ، واختاره ابن جرير .

قال الرازي : فالمراد بالأميين العرب ، وبالآخرين سواهم من الأمم ، وجعلهم منهم ، لأنهم إذا أسلموا صاروا منهم ، فالمسلمون كلهم أمة واحدة ، وإن اختلفت أجناسهم . قال تعالى ^(٣) : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) انتهى .

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٨] . (٢) [٦ / الأنعام / ١٩] .

(٣) [٩ / التوبة / ٧١] .

تنبيه :

قال بعض المحققين : في الآية معجزة من معجزات النبوة ، وذلك في الإخبار عن غيب وقع ، والبشارة بدخول أمم غير العرب في الإسلام قد حصل . فقد صارت تلك الأمم التي أسلمت ، من العرب لأن بلادهم صارت بلاد العرب ، ولتفهم لغة العرب ، وكذلك دينهم وعاداتهم ، حتى أصبحوا من العرب جنساً وديناً ولغة ، وحتى صار لفظ العرب يطلق على كل المسلمين من جميع الأجناس ، لأنهم أمة واحدة^(١) (وَإِنَّ هَذِهِ مِنْ أُمَّتِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) فصدق الله العظيم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ)

« ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ » يعني بعنته تعالى رسولاً في الأميين ، وفي آخرين ، فضله تفضل به على من اصطفاه واختاره لذلك ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته . والآيات هذه رد على من أنكر نبوته ﷺ من يهود المدينة ، حسداً وعناداً ، مع أن لديهم من شواهد رسالته ما لا ترتاب أفئدتهم بصدقها ، ولذا نعى عليهم مخالفتهم لموجب علمهم ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥] (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ، يَتَّبِعُ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) « مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا » قال

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٥٢] .

الزحشرى : شبه اليهود في أنهم حمله التوراة وقراؤها ، وحفاظ ما فيها ، ثم إنهم غير عاملين بها ، ولا منتفعين بآياتها . وذلك أن فيها نعت رسول الله ﷺ ، والبشارة به ، ولم يؤمنوا به - بالحجار حمل أسفارا ، أى : كتباً كباراً من كتب العلم ، فهو يمشى بها ولا يدرى منها إلا ما يمرّ بجنبه وظهره من السكد والتعب ، وكل من علم ولم يعمل ، فهذا مثله ، وبئس المثل ! « بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ » وهم اليهود الذين كذبوا بآيات الله ، الدالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم . ومعنى (حُمِلُوا التَّورَةَ) كلفوا علمها ، والعمل بها ، ثم لم يحملوها ، ثم لم يعملوا بها ، فكأنهم لم يحملوها في الحقيقة لفقد العمل . انتهى .

قال الإمام ابن القيم في (أعلام الموقعين) : قاس من حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدبره ويعمل به ويدعو إليه ، ثم خالف ذلك ، ولم يحمله إلا على ظهر قلب ، فقراءته بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع له ، ولا تحكيم له ، وعمل بموجبه - كحمار على ظهره زاملة أسفار ، لا يدرى ما فيها ، وحظه منها حملها على ظهره ليس إلا ، فحظه من كتاب الله كحظ هذا الحمار من الكتب التي على ظهره . فهذا المثل ، وإن كان قد ضرب لليهود ، فهو متناول من حيث المعنى ، لمن حمل القرآن ، فترك العمل به ، ولم يؤدِّ حقه ، ولم يرعه حق رعايته . انتهى .

« وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » أى الذين ظلموا أنفسهم ، فكفروا بآيات ربهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كان اليهود يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه ، فقيل لهم : إن كنتم صادقين في زعمكم ، وعلى ثقة من أمركم ، فتمنوا على الله أن يميتكم ، وينقلكم سريعا

إلى الآخرة ، فإن الجيب يتمنى لقاء من يحب ، ولا يفرّ منه ، ويود أن يستريح من كرب الدنيا وغمومها ، ويصير إلى روح الجنان ونعيمها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ وَأَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)

[٨] (قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ، ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ

عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

«وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ وَأَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ» أى من المعاصى والسيئات والكفر «وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ» أى فيجازيهم على أعمالهم . وتقدم في البقرة نظير الآية^(١) (قُلْ إِنْ كَانَتْ

لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ ...) الآية «قُلْ إِنْ

الْمَوْتُ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ» أى تخافون أن تتمنوه بلسانكم ، مخافة أن يصيبكم ، فتؤخذوا

بأعمالكم «فَإِنَّهُ وَمُلْقِيكُمْ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ» أى من الأعمال ، حسنها وسيئها ، فيجازيكم عليها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ

ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[١٠] (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ

وَأذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ» أى عند جلوس الإمام

(١) [٢ / البقرة / ٩٤] .

على المنبر ، لأنه لم يكن في عهد رسول الله ﷺ نداء سواه . كان إذا جلس على المنبر ، أذن بلال رضى الله عنه « فَاسْمَعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ » أى الخطبة والصلاة « وَذَرُوا الْبَيْعَ » أى فى ذلك الوقت . قال أبو مالك : كان قوم يجلسون فى بقيق الزبير ، فيشترون ويبيعون إذا نودى للصلاة يوم الجمعة ، فنزلت « ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ » أى سعيكم لها ، وترك البيع ، خير لكم مما نفعه يسير ، وربحه مقارب « إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ » أى أدت وفرغ منها « فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى اذكروا أمره ودينه وشرعه دائماً ، لتصير ملكة لكم ، تظهر آثارها على أعمالكم وأخلاقكم ، فتفلحوا بسعادة الدارين .
قال ابن جرير (١) : أى اذكروه بالحمد له ، والشكر على ما أنعم به عليكم من التوفيق لأداء فرائضه ، لتفلحوا فتدركوا طلباتكم عند ربكم ، وتصلوا إلى الخلد فى جنانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

« وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً » أى غير تجارة « أَوْ لَهْوًا » أى ما تلهو به النفس عن الحق والجد والنافع « أَنْفَضُوا إِلَيْهَا » أى أسرعوا إلى التجارة خشية أن يسبقوا إليها . وإنما أوتى ضميرها لأنها الأهم المقصود « وَتَرَكُوكَ قَائِمًا » أى على المنبر « قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ » أى من الثواب المرجو بسماع الخطبة والعظة بها « خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ » أى لأن الثواب مخلد نفعه ، بخلاف ما يتوهمون منه .

قال الشهاب : وتقديم (اللهو) لأنه أقوى مذمة ، فناسب تقديمه فى مقام الذم .

(١) انظر الصفحة رقم ١٠٣ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .

« وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » أى : فاعملوا للأعراض الباقية عنده ، فإنها خير من الأمور الفانية عندهم ، وفوضوا أمر الرزق إليه بالتوكل ، والثقة بفضله . فإنه خير الرازقين .

تنبيهات

الأول - قال الرازى : وجه تعلق آية الجمعة بما قبلها ، هو أن الذين هادوا يفرّون من الموت لمتاع الدنيا وطيباتها ، والذين آمنوا يبيعون ويشرون لمتاع الدنيا وطيباتها كذلك . فنبههم الله تعالى بقوله : (فَاسْمِعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ) أى إلى ما ينفعكم فى الآخرة ، وهو حضور الجمعة ، لأن الدنيا ومتاعها فانية ، والآخرة وما فيها باقية . قال تعالى (١) : (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ) . ووجه آخر فى التعلق . قال بعضهم : قد أبطل الله قول اليهودى فى ثلاث : افتخروا بأنهم أولياء الله وأحباؤه فكذبهم بقوله (٢) : (فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ) . وبأنهم أهل الكتاب ، والعرب لا كتاب لهم ، فشبهم بالحجر يحمل أسفارا . وبالسبت ، وليس للمسلمين مثله ، فشرع الله لهم الجمعة . انتهى .

وقال الهامى فى وجه المناسبة : بين تعالى أن مقتضى الإيمان الاجتماع على الخير ، لاسيما الشكر على الإنسانية ، لثلاث تنقلب حمارية أو بهيمية ، فى مقابلة اجتماع أهل الكتاب على الشر ، الذى جرهم إلى الحمارية والبهيمية .

الثانى - قال السيوطى فى (الإكليل) : فى قوله تعالى (إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْمِعُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ) مشروعية صلاة الجمعة ، والأذان لها ، والسعى إليها ، وتحريم البيع بعد الأذان . واستدل بالآية من قال إنما يجب إتيان الجمعة على من كان يسمع فيه النداء . ومن قال لا يحتاج إلى إذن السلطان ، لأنه تعالى أوجب السعى ، ولم يشترط إذن أحد . ومن قال لا تجب على النساء لعدم دخولهن فى خطاب الذكور . انتهى .

(١) [٨٧ / الأعلى / ١٧] . (٢) [البقرة / ٩٤] .

الثالث : في (الإكليل) : في قوله تعالى (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ) إباحة الانتشار عقب الصلاة ، فيستفاد منه تقديم الخطبة عليها . انتهى .

وظاهره أنه لا يشرع بعد أدائها صلاة ما غير أنه كان صلى الله عليه وسلم يتنفل بعدها في بيته ركعتين . وفي رواية أربعاً . وأما اعتقاد فرضية الظهر بعدها إذا تعددت ، فتمعصب مذهبي لا برهان له . وقد قلت في مقدمة مجموعة الخطب^(١) ، في الفائدة الرابعة ، ما مثاله : الحاجة في هذه البلاد في هذه الأوقات ، تدعو إلى أكثر من جمعة ، إذ ليس للناس جامع واحد يسمعونهم ، ولا يمكنهم جمعة واحدة أصلاً . إلا أن خروجها إلى حد أن لا فرق بينها وبين بقية الصلوات في كثير من المساجد الصغيرة التي لم تشيد لئليها ، قد هول فيه السبكي في فتاويه ، لأنه مما تأباه مشروعيتها ، وما مضى عليه عمل القرون الثلاثة ، بل تسميتها جمعة ، فإن صيغة (فُعْلَمَة) في اللغة للمبالغة . وبالجملة فالجوامع الكبار التي تؤمها الأفواج يوم الجمعة ويحتاج لإقامتها فيها حجة بينة لمجاوريها ، هي التي لا خلاف في جوازها مهما تعددت ، والتي لا تعاد الظهر بعدها ، وقد بسطناها في كتابنا (إصلاح المساجد من البدع والعيوادم)^(٢) .

الرابع - يدل قوله تعالى : (وَأَبْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ) على عدم مشروعية تعطيل يوم الجمعة ، ففيه تعريض بمجانبة التشبه بأهل الكتاب في تعطيل يوم السبت والأحد ، ورد على ما ابتدع فيه من الوظائف ما يدعو إلى الانقطاع عن كل عمل . والأصل أن كل مالم ينص عليه الكتاب الحكيم ، ولا الهدى النبوي ، من خبر قويم ، فهو تشريع مالم يأذن به الله . وإذا رفع الله فضله عنا الإصر والأغلال التي كانت على من قبلنا ، فما بالناس نستجربها إلينا بالأسباب الضعيفة ، فاللهم غفرًا .

(١) مجموعة للمؤلف رحمه الله بدمشق .

(٢) طبعه في المطبعة السلفية بمصر عام ١٣٤١ هـ .

الخامس - قال في (الإكليل) : في قوله تعالى (وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا أُنْقَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قِيَامًا) مشروعية الخطبة، والقيام فيها، واشتراط الجماعة في الصلاة، وسماهم الخطبة ، وتحريم الانقضاء . انتهى .

وفي الصحيحين^(١) عن جابر قال : قدمت غير مرة المدينة ، ورسول الله ﷺ يخطب ، فنخرج الناس . وبقى اثنا عشر رجلاً ، فنزلت (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية .

وروى ابن جرير^(٢) عن جابر قال : كان الجوارى إذا نكحوا يمرون بالكبر والزامير ، ويتركون النبي ﷺ قائماً على المنبر ، ويففضون إليها ، فأنزل الله (وَإِذَا رَأَوْا . . .) الآية . وعن مجاهد : اللهو الطبل .

(١) أخرجه البخارى في : ١١ - كتاب الجمعة ، ٣٨ - باب إذا نقر الناس عن الإمام في صلاة الجمعة ، حديث ٥٤٤ .

ومسلم في : ٧ - كتاب الجمعة ، حديث رقم ٣٦ (طبعتنا) .

(٢) انظر الصفحة رقم ١٠٥ من الجزء الثامن والعشرين (طبعة الحلبي الثانية) .